سورة الفتح

المباركة

- **رقم السورة: ٤٨**
- **عدد الآيات: ٢٩**
- **ملامح السورة: تتألف هذه السورة من تسع وعشرين آية. نزلت هذه السورة في السنة السادسة للهجرة، بعد صلح الحديبية، في المدينة المنوّرة.**

- أهم القضايا التي تتحدث عنها هذه السورة هي البشارة بفتح مكّة، وما يرتبط بصلح الحديبية، وبيعة الرضوان، والإشارة إلى المنافقين والمتخلّفين عن الجهاد، وتختم أخيراً بالحديث عن الخصائص التي يتّصف بها النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله).

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)

إشارات:

في المراد من الفتح في مطلع السورة احتمالات عدة واختلاف بين المفسّرين، فمنهم من يرى أن المراد هو صلح الحديبية، ومن أصحاب هذا الرأي: الألوسي، وأبو الفتوح الرازي، والعلامة الطباطبائي، والفيض الكاشاني. ومن المفسرين من يرى أن الفتح هو فتح مكّة، ومن هؤلاء: الشيخ الطوسي، والزمخشري، والفخر الرازي. وكل من الطرفين يستند إلى بعض الروايات الواردة حول السورة.

وتكمن أهميّة صلح الحديبية في تمهيده لفتح مكّة والانتصارات اللاحقة التي ترتّبت عليه. ومن جهة ثانية كانت الفكرة الوحيدة التي تدور في رؤوس المشركين هي القضاء على الإسلام والمسلمين. وتوقيع الصلح مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان بمثابة اعتراف بالمكانة الاجتماعية والسياسية للإسلام، وبالتالي قضاء على هذه الفكرة وانتزاعاً لها من رؤوسهم.

ووصف الفتح بأنه مبين من جهة تضخّم عدد المسلمين، ففي السنة السادسة للهجرة، أي وقت الصلح كان عدد المشاركين مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) ألفاً وأربعمائة مقاتل، وأما عند فتح مكّة فقد ارتفع العدد إلى عشرة آلاف رجل.

في نظام الهداية الإلهيّ لا محل للإبهام والغموض، فكل ما يتعلّق بالدعوة واضح ومبين، ومن ذلك:

- الرسول رسول مبين: «رسول مبين».

- والقرآن قرآن مبين: «قرآن مبين».

- واللغة التي يخاطب بها العباد لغة مبينة: «هذا لسان عربيّ مبين».

- الإنذار والتحذير أيضاً كذلك: «نذير مبين».

- بل حتى النصر والسلم مبين: «فتحاً مبيناً».

وعلى ضوء ذلك من يعصِ الله ورسوله يكن في الجهة المقابلة للهداية بشكل واضح وبيّن: «ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً».

- توجّه هذه الآيات الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، حيث يقول الله سبحانه له: «فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ لَكَ... ذَنبِكَ ... وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ .. وَيَنصُرَكَ». وهذا الخطاب من المؤشّرات الدالّة على كرامة النبيّ (صلى الله عليه وآله) وعلوّ مكانته عن الله سبحانه.

- الـ"ذنب" في أصل اللغة من الذّنَب أو الذيل، وهو أحد أعضاء الحيوان، يكون في مؤخرة البدن، يحمله أو يجرّه خلفه. واستعير للتعبير عن التبعات التي يحملها الإنسان خلفه نتيجة بعض أعماله.

ولا شكّ في أنّ مسيرة الحقّ ترتّب على صاحبها أعباء وتبعات عند المعارضين، وبالتالي هذه الأعمال التي يقوم بها صاحب الحقّ هي ذنوب في نظر المعارضين، أو على الأقلّ يحمّلونه مسؤولية ما يقوم به. وورد في الرواية عن الإمام الرضا (ع): "لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب... فلما فتح الله تعالى على نبيّه (صلى الله عليه وآله) [بشره الله بمغفرة هذه الذنوب عند أهل مكّة سواء في ذلك] ما تقدّم وما تأخّر؛ لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكّة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه، إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفوراً بظهوره عليهم...".

أمر الله بتحويل القبلة إلى الكعبة في السنة الثانية للهجرة. وجرت وقائع صلح الحديبية في السنة السادسة، وفتح مكّة في السنة الثامنة. يَعِدُ الله سبحانه في هذه الآية بإتمام النعمة فيقول: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ». وفي حجّة الوداع تتمّ هذه النعمة ويكتمل الدين بإعلان ولاية أمير المؤمنين عليّ (ع)، وهو ما تشير إليه الآية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»٧.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤)

إشارات:

– السكينة من السكون والاطمئنان، وهي حالة من الاستقرار النفسي يمنّ الله بها على بعض عباده في بعض حالاتهم، فَتُرتّب عليها آثار ونتائج مهمة، منها: عدم الخوف من اللوم، التوكل، عدم الأسى على ما يفوت، عدم الفرح بما ينال، تساوي حالتي الغنى والفقر عنده، والشهرة وضدّها...

الرعب والسكينة من الله سبحانه، فكما أنه يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب على حد قوله سبحانه: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ»١، فكذلك هو الذي يلقي في قلوب المؤمنين السكينة ويظللهم بها: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ».

التعاليم:

١– السكينة الروحية من الألطاف الإلهية، ومن هنا لا يمكن لأي من الناس أن يهب هذه الحالة لأحد منهم: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ».

٢– تلقّي اللطف الإلهيّ يحتاج إلى استعداد وأهلية: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ».

٣– محل السكينة والاطمئنان هو القلب، والوسيلة إليه هي ذكر الله سبحانه: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»، ويقول سبحانه عن الذكر: «الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ»٢.

٤– الإيمان مفهوم له درجات ومراتب، وهو يقبل الزيادة والنقص: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا».

٥– يحتاج الإنسان إلى درجة من درجات الإيمان ليصل إلى السكينة، وبعد أن يحصل على السكينة، يترقى في درجات الإيمان وترتفع رتبته: «أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ».

٦– من الوسائل والطرق لاكتساب السكينة الالتفات إلى جنود الله في السماء والأرض: « أَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

٧– الوجود كله مجنّد بين يدي الله سبحانه: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

٨– الألطاف الإلهية تصيب من تصيب وفق قواعد العلم والحكمة: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥)

إشارات:

– كلمة "فوز" في القرآن عندما تقترن بالصفات: كبير، مبين، عظيم، تدلّ على السعادة ونيل الخير.

أشارت الآيتان، الأولى والثانية، إلى نعم أنعم الله بها على نبيّه (صلى الله عليه وآله)، وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى مجموعة من النعم أنعم بها سبحانه على المؤمنين.

ونعم النبيّ (صلى الله عليه وآله) هي: النصر المبين، المغفرة، إتمام النعمة، وهدايته ونصرته في ظل الفتح المبين. أما النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين، فهي: السكينة، وزيادة الإيمان، ودخول الجنّة، ومغفرة السيّئات.

الجنّة محل للطهارة، لا مجال فيه للخبث المادي أو المعنوي. ومن هنا، فإن الله يكفّر عن المؤمنين سيئاتهم ثم يدخلهم جنّته. وربّما يكون المراد من التكفير في الآية أنه سبحانه ينسيهم معاصيهم وذنوبهم كي لا يكدّر ذكرهم إياها خاطرهم وهم في الجنّة يحبرون.

التعاليم:

١– السكينة والاطمئنان من أسباب زيادة الإيمان ومن المقدمات التي تفضي إلى دخول الجنّة: «أَنزَلَ السَّكِينَةَ ... لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا... لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ».

٢– دخول الجنّة نعمة إلهيّة تشمل المؤمنين والمؤمنات معاً وعلى حد سواء: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ» (ورغم أنّ الفتح يتمّ على أيدي الرجال، إلا أنّ المرأة شريكة في هذا الفتح، على الأقل برضاها بمشاركة الرجل القريب منها زوجاً أو أباً أو ابناً).

٣– الإيمان لا يعني العصمة من الوقوع في الخطأ والمعصية: «الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

٤– يستحق المؤمنون دخول الجنّة بغضّ الله عن سيئاتهم وتكفيرها لهم، وليس بأعمالهم: « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

٥– السعادة والفوز الحقيقي هما الجمع بين السكينة في الدنيا والجنّة في الآخرة: «أَنزَلَ السَّكِينَةَ ... لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ ... وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا».

وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧)

إشارات:

"دائرة السوء": أي ما يحيط بهم كالدائرة من الحوادث المرّة في العاقبة.

بعد أن تعرّضت الآيات السابقة للنعم الإلهية على النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وعلى المؤمنين، تشير هذه الآية إلى تهديد الله الموجّه إلى المنافقين والمشركين.

ذُكر المنافق في هذه الآية قبل المشرك، ولعلّ في ذلك إشارة إلى أن النفاق والمنافق أقبح من الشرك والمشرك.

ورد في الرواية عن العالم من أهل البيت (ع): "... والله تعالى لا يعذب عبداً بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنّه وتقصيره في رجائه لله عزّ وجلّ..." ثم تلا هذه الآية.

عبارة "لله جنود السموات والأرض" وردت في آية سابقة في سياق بيان اللطف الإلهيّ، وفي هذه الآية في سياق التهديد والوعيد. وذيّلت الآية السابقة بوصف الله نفسه بالعليم الحكيم، وهذه الآية ذيّلها الله سبحانه بوصف نفسه بالعزيز الحكيم. ولعلّ المراد أن الله يعلم أفعال المؤمنين وأحوالهم وإخلاصهم وضعفهم في بعض الحالات وعندما يغفر لهم لا يغفر لهم لجهله بحالهم. وأما العزة الإلهيّة فيراد منها القول للمنافقين والمشركين إن كل جبروتكم سوف يزول وسوف يعاملكم الله بعزته التي لا تضام، ولكنه في الحالين حكيم، يغفر عن علم وحكمة، ويعاقب بعزة وحكمة أيضاً.

التعاليم:

١- من المناسب الجمع بين الترغيب والترهيب في سياق واحد، فيوجّه التهديد إلى من يستحق ويحث على الخير من يتوقع منه الخير، وربما كان ذلك من أجل اكتمال المشهد ووضوح الصورة: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ... وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ».

٢- قد تكون حادثة واحدة نعمة على جماعة من الناس ونقمة على جماعة أخرى منهم؛ فتحاً وفوزاً للمؤمنين وعذاباً على غيرهم: «لِيَغْفِرَ ... لِيُدْخِلَ ... وَيُعَذِّبَ».

٣- النساء كالرجال على حدّ سواء في اكتساب الفضائل أو الرذائل: «الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ».

٤- سوء الظنّ بالله من صفات المنافقين والمشركين، وأما المؤمنون فإنّهم يحسنون الظنّ به سبحانه ويتوكّلون عليه: «الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

٥- المنافقون والمشركون في الشيطنة والانحراف شركاء على خطّ واحد: «... الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ».

٦- المؤمن بسبب إيمانه مطمئن متصف بسكينة القلب، وأما المنافق والمشرك فهما، بسبب انحرافهما عن الحقّ وضلالهما، سيّئا الظنّ بالله يعيشان في حالة اضطراب يحيط بهما من كل مكان: «دَائِرَةُ السَّوْءِ».

٧- المنافق والمشرك في الدنيا والآخرة محرومان من رحمة الله سبحانه: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا».

٨- أفعال الله سبحانه تجري عبر الأسباب والوسائط: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

٩- لله سبحانه جنود وأدوات كثيرة يسخرها لجريان لطفه كما لجريان غضبه ونقمته: «وَلِلَّهِ جُنُودُ...».

١٠- استعراض القدرة الإلهيّة ينفع لحمل الناس على الإيمان ولزوم التقوى: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٩)

إشارات:

– التعزير في اللغة المنع، وفي هذه الآية يراد منه الحفظ والحماية من كل ما يسوء.

– من المعاني التي ربّما تكون مرادة من كلمة "شاهد" في الآية النموذج الأكمل والأتمّ، فعندما يوصف النبيّ (صلى الله عليه وآله) بأنّه شاهد، معناه أنه نموذج وقدوة، وبكلمة مختصرة: إنسان كامل.

– العبارتان: "تعزروه" و"توقروه" قد يكون المراد من الضمير فيهما الله سبحانه، وقد يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وعلى أي حال تكريم الله واحترامه يكون باحترام النبيّ.

التعاليم:

١– النبيّ (صلى الله عليه وآله) شاهد على أعمالنا ومطلع على تصرفاتنا: «أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا».

٢– من الوظائف الموكلة إلى النبيّ (ص) مراقبة العباد والشهادة على أعمالهم، والإنذار والبشارة: «أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». ومن الواجبات الملقاة على عاتق الناس الدفاع عن النبيّ (ص) وعن حياض التشريع الإلهي وحدود الله: «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ».

٣– من القواعد المهمّة في التربية الجمع بين الترغيب والترهيب (البشارة والإنذار): «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

٤– البشارة والإنذار، والتحذير والحثّ، من الحاجات الضرورية للإنسان والتي يتوقف عليها اختيارنا الطريق الصحيح: «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

٥– حماية حياض الدين والدفاع عن رسول الله من لوازم الإيمان: «وَتُعَزِّرُوهُ».

٦– لا بدّ من أي يقترن الدفاع عن رسول الله بالاحترام، ومن أن يكون نابعاً من المحبة له: «وَتُوَقِّرُوهُ».

٧– على الإنسان أن يبقى في حالة ذكر دائمة لله، وأفضل الأوقات للذكر والدعاء هي الصباح والمساء: «وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)

إشارات:

– قيل سميت البيعة بهذا الاسم لأنها عقدت على بيع أنفسهم بالجنّة، للزومهم في الحرب والنصرة. وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنهم بايعوا النبيّ (ص) في بيعة الرضوان تحت الشجرة على عدم الفرار والقتال بين يديه إلى حدود الموت.

– في الآية عبارتان في حقّ الأوفياء من الناس، وذلك من باب الاهتمام والاحترام، وهاتان العبارتان هما: «يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، و«فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». وأما مع الخائنين فقد أشارت إليهم الآية مرة واحدة بقوله تعالى: «يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ».

التعاليم:

١– العلاقة بالنبيّ (ص) والدفاع عنه ينبغي أن يكونا دائمين وفي كل حال وليس في أوقات دون أخرى وبشكل موسمي: «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ... إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ». والمعنى المشار إليه يستفاد من التعبير بالمضارع الذي يدلّ على الاستمرار.

٢– لا تنافي بين أخذ البيعة من الناس وبين التوكّل على الله وتوحيده: «يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ».

٣– إنما يحقّق النبيّ (ص) ويفعل ما يريده الله ويرغب فيه، ولا يقدم النبيّ (ص) على فعل ليس لله فيه رضاً: «يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ».

٤– بيعة النبيّ (ص) هي في الحقيقة بيعة مع الله: «يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ».

٥– على قائد المسلمين أن يجدد التأكيد على وفاء الناس والتزامهم مرّة بعد أخرى، وذلك لأن القرائن الموجودة في الآية تدلّ على أن هذه البيعة لم تكن البيعة الأولى، وما ورد في الروايات حول نزول الآية يدلّ على هذا المعنى.١

٦- يترتّب على الدفاع عن رسول الله أن يدافع الله عن الإنسان ويتولّى حمايته: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ».

٧- لا ينبغي أن يغترّ القائد بحماية الناس إياه والتفافهم حوله، فقدرة الله أبقى من أي شيء آخر: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ».

٨- ليس الله في حاجة إلى حماية أحد أو دفاعه؛ وعليه يجب على الخائن وناكث العهد أن يلتفت إلى أن الضرر والخسران يرتدّان عليه وقدرة الله فوق قدرته: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ».

٩- نقض العهد ونكثه هو نكث على النفس قبل أن يكون إخلالاً بالميثاق مع الطرف الآخر: «فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ».

١٠- من الأمور المجدية والمفيدة في مقام الدعوة والإرشاد، بيان عاقبة المحسنين والمسيئين: «فَمَن نَّكَثَ... وَمَنْ أَوْفَى...».

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١)

إشارات:

– "الأعراب" هم الذين يسكنون البوادي فراراً من الحضارة والثقافة والالتزامات المدنية. ولا شكّ أنه لا يراد من هذه الكلمة المعنى المقابل للسكن في المدن، بل تطلق هذه الكلمة على الجماعات التي كانت بعيدة عن الحضارة والثقافة وكانت تقف موقف العداء من رسول الله (ص).

– من يتهرّبون من الجهاد يحاولون تبرير فرارهم بأشكال مختلفة ورد كثير منها في القرآن الكريم:

فمرة يتعللون بشدّة الحر: «لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ»١.

وأخرى يجعلون عذرهم العجز عن مواجهة العدوّ لكثرة عدده: «لاَ طَاقَةَ لَنَا»٢.

وثالثة يتخذون من مواقع بيوتهم وأوضاعها حجّة للفرار: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ»٣.

ورابعة يظهرون الخوف من الافتتان بنساء العدوّ إن هم خرجوا إلى قتاله: «لاَ تَفْتِنِّي»٤.

وخامسة يتعللون بالانشغال بالأموال والأولاد والعيال: «شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا».

– يغطّي الفارّون من الجهاد الخوف بالاحتياط، والحرص والطمع بالسعي لتأمين المستقبل، وضعف النفس بالحياء، والفشل بالزهد، والضعف بالقضاء والقدر الإلهيين والرضا بإرادة الله.

التعاليم:

١– من العوامل المساعدة على ترك الجهاد التخلّف الثقافي والانحطاط الفكري: «الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ».

٢– على القائد أن يستشرف المستقبل ويتوقع مواقف المحيطين به من منافقين وغيرهم، ليقدم الجواب المناسب في الوقت المناسب: «سَيَقُولُ... قُلْ...».

٣- كل من يخالف ويتخلّف يحاول تبرير فعله ولو بأعذار واهية: «شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا».

٤- الاهتمام بالأهل والولد والأموال والأوضاع الاقتصادية تشغل الإنسان عن واجباته الدينية والاجتماعية ومنها الجهاد: «شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا».

٥- التخلّف عن الجهاد معصية: «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا».

٦- دعاء النبيّ (ص) واستغفاره لغيره من الناس مؤثّر ومجدٍ، والناس يتوقعون من الله أن يقبله، ولذلك يطلبون منه (ص) الاستغفار والدعاء لهم: «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا».

٧- في بعض الأحيان من المناسب كشف بعض الأمور المستورة وفضحها: «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ».

٨- الفرار من الجهاد لا يحمي الأموال والأرواح: «فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا».

٩- الدفاع عن الدين من الواجبات التي تسقط بالخوف من الضرر: «إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا».

١٠- يبدو أن المنافقين والذين يفرّون من الجهاد لا يعلمون أنّ الله مطّلع على ما يضمرون في قلوبهم، وربّما لو آمنوا بسعة علم الله لما فعلوا ما فعلوه: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣)

إشارات:

– "بور" من البوار، وهو فرط الكساد، يؤدي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد. عبَّر بالبوار عن الهلاك، يقال بار الشيء بواراً...

– الإنسان بفطرته الصافية الخالصة ينفر من الأعمال القبيحة، ولا يقدم عليها إلا بعد تزيين الشيطان إيّاها في عينيه.

– يبدو أن الفارّين من الجهاد في عصر النبيّ (ص) كانوا يظنون أن المسلمين سوف يقضى عليهم ولن يبقى منهم إلا القليل، ولذلك فإنهم خلعوا جلباب الحياء وأظهروا كثيراً مما كانوا يخشون ظهوره من بخل وجبن وغير ذلك من الصفات السيئة التي يتصفون بها.

التعاليم:

١– يعلم الله ما يدور في خلد الناس وما يضمرون في صدورهم. وهو كثيراً ما يستر عليهم، ولكنه في بعض الحالات يكشف المستور: «بَلْ ظَنَنتُمْ».

٢– كثير من التحليلات والحسابات التي يجريها الإنسان لا تطابق الواقع ولا تكون كما كان يتوقع: «بَلْ ظَنَنتُمْ».

٣– يرتفع منسوب سوء الظنّ عند الإنسان في بعض الحالات، حتى يقارب اليقين، ويودي بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه من مواقف ما كان له أن يتخذها لو دقّق في حساباته التي بناها على الظنّ: «بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ».

٤– الخوف من الهزيمة من الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الفرار من الجهاد: «بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ».

٥– الاهتمام بالأسرة، إلى حدود تتجازو المعقول، يتحول إلى عائق عن الجهاد، وداع من دواعي الفرار منه: «لَّن يَنقَلِبَ ... إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا».

٦- قد يبالغ الإنسان في بعض الحالات في محبّة أسرته وأبنائه إلى حد يدعوه إلى التضحية برضا الله والرسول، دون أن يشعر أنه يتصرّف بشكل غير مناسب، بل أنّ ذلك هو الصواب والفعل الحسن: «وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ».

٧- سوء الظنّ والحسابات الخاطئة تؤدي إلى بوار قلب الإنسان وخراب شخصيّته: «وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا».

٨- معصية رسول الله ومخالفة أوامره من المؤشرات على عدم صدق الإيمان: «وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤)

إشارات:

- في الموارد التي يخبرنا فيها الله سبحانه عن أنّه "يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء" يكون المراد منها، بعد الاعتقاد بعدل الله وحكمته، أن يرى الإنسان نفسه أهلاً للمغفرة في الموارد التي هي محلّ للمغفرة والرحمة، وأهلاً للعقاب والعذاب في الموارد المناسبة لذلك.

التعاليم:

١- من بيده المغفرة والعفو هو صاحب القدرة المطلقة: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ... يَغْفِرُ».

٢- لطف الله يغلب قهره وغضبه: «يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ». يستفاد هذا المعنى من تقدّم المغفرة على العذاب.

٣- لا بد من التوأمة بين الخوف والرجاء، والأمل والخشية: «يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ».

٤- باب التوبة مفتوح في وجوه العباد على الدوام: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

٥- في الوقت الذي يصلح الله للإنسان ماضيه، هو قادر برحمته على أن يصلح مستقبله بالوعد المتجدد بالمغفرة الدائمة: «يَغْفِرُ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

٦- مغفرة الله سبحانه تنشأ من رحمته وليس من حاجته إلى المغفرة: « غَفُورًا رَّحِيمًا».

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥)

إشارات:

- ورد في سبب نزول الآية أن بعض المتخلّفين عن الحديبية أرادوا اللحاق بالمسلمين في خيبر فقرر النبيّ (ص) أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيره، فأرادوا تغيير الأمر عما أراد فكشفهم الله بنزول الآية.١

- الآيتان ١٢ و١٣ تؤكّدان أنّ سبب ترك الجهاد في الحديبية هو سوء الظنّ بالله وضعف الإيمان. وقد حاول هؤلاء الأشخاص الإصرار على المشاركة في خيبر لينفوا التهمة عنهم، وليثبتوا عدم انطباق الآيتين عليهم.

التعاليم:

١- على أهل القرار أن يرفعوا من الروح المعنوية للمؤمنين. والله في هذه الآية يعد المؤمنين بغنائم خيبر بعد ما أصابهم جراء الحديبية وأحداثها: «إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ» بدل أن يقول: "انطلقتم إلى الجهاد".

٢- بعض الناس انتهازيون يبحثون عن المغنم فيشاركون في أوقات الرخاء وفي حالات توقع المكاسب: «مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ».

٣- يريد المتخلّفون أن يبدّلوا كلام الله ويحوروا مضمونه: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ».

٤- لا بد من تخصيص المجاهدين المخلصين ببعض الامتيازات التي لا ينالها الذين يقصّرون في أداء واجباتهم: «قُل لَّن تَتَّبِعُونَا».

٥- على الإنسان القيادي أن يقول ما يريد الله وينسب مضمون كلامه إلى الله: «قُل... كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ».

٦- لا ينبغي أن يخشى الإنسان التهمة والتهديد: «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا».

٧- يغيّر العدوّ شعاراته وسلوكه بحسب الظروف والأوضاع المحيطة به. ففي بعض الحالات يريد تغيير كلام الله وتحريفه وعندما يعجز عن ذلك يغيّر موقعه ويتحوّل باتّجاه المؤمنين ويتّهمهم بالحسد: «سَيَقُولُ... ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ... فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا».

٨- عندما يستبدّ الانحراف بالإنسان يعجز عن فهم موقعه وأسباب فشله، فبدل أن يعود إلى نفسه ليفتّش عن نقاط الضعف فيها، يخطئ التحليل فيرجع الفشل إلى حسد المؤمنين: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦)

التعاليم:

١- ينبغي إبقاء باب الحوار مفتوحاً مع المخالفين والمعارضين: «قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ».

٢- الإخبار عن المستقبل من وجوه إعجاز القرآن الكريم: «سَتُدْعَوْنَ».

٣- لا ينبغي سدّ باب العودة في وجوه المختلّفين رغم تخلّفهم؛ وذلك كي لا نخسرهم إلى الأبد: «سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ».

٤- ينغي أن لا نستهين بقدرات العدوّ: «سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ».

٥- على القائد أن يعدّ جيشه ويعرّفه بنقاط قوّة العدوّ وضعفه؛ ليقاتل عن بصيرة ودراية ولا يفاجأ بقوّة عدوّه: «أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ».

٦- لا ينبغي أن نغفل عن ذكر الحقّ حتّى في حقّ العدوّ: «أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ».

٧- قوّة العدوّ القتاليّة ليست معيقة للإنسان عن أداء واجباته: «أُوْلِي بَأْسٍ... تُقَاتِلُونَهُمْ».

٨- على المسلمين أن يضعوا نصب أعينهم دعوة العدوّ إلى الإسلام، ولو من خلال رصّ صفوفهم وتقوية بنيتهم الدفاعيّة: «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ».

٩- ساحة الجهاد وميدان الحرب من الساحات التي تظهر ما يخفيه الإنسان في باطنه من طاعة أو معصية: «تُطِيعُوا... تَتَوَلَّوْا».

١٠- الإحسان وفعل الخير قد يجبر ماضي الإنسان ويصلح ما فات: «قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ... فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا».

١١- في التبليغ والدعوة إلى الله يجب تقديم البشارة على التهديد وإثارة الأمل قبل التخويف؛ ولذلك جاء قوله تعالى: «أَجْرًا حَسَنًا»، قبل قوله: «عَذَابًا أَلِيمًا».

١٢- على الداعية إلى الله أن يقرن الترغيب بالترهيب: «أَجْرًا حَسَنًا... عَذَابًا أَلِيمًا».

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (١٧)

إشارات:

– معيار الإعفاء من الجهاد الأمراض التي تعيق الإنسان عن الحركة والقدرة على القتال كالعمى والعرج، وليس طول القامة وقصرها، أو غير ذلك من الأمور الشكليّة.

– رغم أنّ بعض الناس معفون من الجهاد لعجزهم عن المشاركة في القتال، إلا أنّ هؤلاء يمكنهم المشاركة في الجهاد ولو بالنصيحة ونية الخير، كما ورد في الآية ٩١ من سورة التوبة: «لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى... حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ...».

التعاليم:

١– على المقنّن أن يلاحظ الحالات الخاصة والاستثناءات عند سنّه للقوانين، فيشير إلى الحالات الخاصّة فيخرجها من دائرة القانون العامّ: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...».

٢– لا ينبغي أن يشعر المعاق بأي حرج أو بسبب عجزه عن القيام بواجبه: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ...». وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية تنفي كل أشكال الحرج، لأنّ كلمة "حرج" نكرة في سياق النفي وذلك من صيغ العموم كما يقال في علم الأصول والبلاغة.

٣– التكاليف الإلهيّة تكون بحسب الطاقة والقدرة: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...».

٤– لا يمنع الله العاجزين عن القيام ببعض الواجبات من دخول الجنّة شرط أن يطيعوا فيما هم قادرون على الطاعة فيه: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ... وَمَن يُطِعِ اللَّهَ».

٥– النبيّ معصوم ولذلك يجب أن يطاع في كل ما يأمر به، وطاعته من طاعة الله: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

٦– المعيار الأساس في دخول الجنّة هو الطاعة، رغم أن الشفاعة تنفع وتساعد في تقريب الإنسان من الجنّة وإبعاده عن النّار: «وَمَن يُطِعِ... يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ».

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩)

إشارات:

– كانت العادة تقضي أن يتصافح المتبايعان بعد عقد البيع، ثم تحوّل ذلك إلى كل اتفاق، وصار يطلق اسم البيعة على التوافقات والعهود التي تتم بين القائد وبين الناس.

– البيعة عهد شرعي يجب الوفاء به والالتزام بمضمونه.

– لا تنافي بين البيعة وبين تعيين الرسول أو الإمام من الله سبحانه، فالبيعة إعلان للطاعة وليست تولية وتكليفاً بالقيادة.

– الشجرة في الآية هي الشجرة التي جلس في ظلّها النبيّ (ص) لأخذ البيعة من المسلمين، ولنزول قوله تعالى: "رضي الله..." سمّيت ببيعة الرضوان.

التعاليم:

١– الإيمان الذي يرضاه الله ويريده هو الإيمان المقرون بالوفاء للرسول والثبات بين يديه: «رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ».

٢– الدين والسياسة مترابطان، فالله سبحانه يرضى عن المؤمنين الذين يؤدّون واجباتهم تجاه الرسول فيبايعونه على مشاركته أهدافه الاجتماعية والسياسية وغيرها مما يتعلّق بالشأن العام: «رَضِيَ اللَّهُ... إِذْ يُبَايِعُونَكَ».

٣– من المناسب الإشارة إلى التفاصيل والجزئيات عند توثيق الأحداث التاريخية المهمّة: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

٤– يخصّ الله ببعض ألطافه من يعلم صدق نياتهم وإخلاصهم في الإيمان: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ».

٥– السكينة هدية من الله يظلّل بها قلوب المؤمنين: «فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ».

٦- لا تنافي بين إخلاص النيّة وصدقها، وبين الحصول على المكاسب والمغانم: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً».

٧- الوفاء لرسول الله من المقدّمات التي تجعل الوقيّ أهلاً لتلقّي الفيض الإلهيّ: « رَضِيَ اللَّهُ... فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً».

٨- النعم المعنوية أهمّ وأرفع شأناً من النعم المادية؛ ولذلك تقدّمت الإشارة إليها في الآية: «... فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً».

٩- الحركة الواحدة إذا صدرت مقرونة بالإخلاص يتبعها من الله أضعافها: «يُبَايِعُونَكَ... فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثَابَهُمْ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً».

١٠- السكينة من مقدّمات النصر والفوز: «فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا».

١١- النصر لطف من الله وليس تابعاً لقدرات الإنسان نفسه بغضّ النظر عن إرادة الله ومشيئته: «وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا». ويجدر التذكير بأول السورة حيث يقول سبحانه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ».

١٢- عندما يكون العمل فيما يرضي الله لا بدّ من توقع تحقّق وعود الله فهو الحكيم وهو القادر على إنجاز ما وعد: «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠)

إشارات:

– وعد الله في الآيتين السابقتين الذين بايعوا النبيّ (ص) بالفتح القريب. ويرى أكثر المفسّرين أنّ المراد بهذا الفتح هو فتح خيبر. ومن هؤلاء المفسرين: الطبري، الطوسي، الزمخشري، المراغي، الطبرسي. وخيبر هو حصن من حصون اليهود يقع على بعد مائتي كليومتر تقريباً عن المدينة، وموقع الحصن في مرتفعات صعبة الوصول، محاطة بأراض زراعية. وكان يسكن الحصن وأطرافه ما يقرب من عشرة آلاف يهودي. ولهذا الحصن باب عجيب يروى أنه كان يحتاج إلى أربعين رجلاً لتحريكه.

وقد تحوّل الحصن إلى مقرّ ومأوى للمتربّصين بالإسلام، ولذلك عزم المسلمون على إسقاطه بعد شهر من صلح الحديبية. وقد أرسل النبيّ (ص) عدداً من الحملات لفتح الحصن واقتحامه، يرأس كل واحدة منها واحد من الصحابة، فباءت جميعاً بالفشل، إلى أن قال في أحد الأيام: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه". وفي اليوم التالي عقد الراية لعليّ (ع).

– الاهتداء إلى الصراط المستقيم من أعظم النعم الإلهيّة على الإنسان، ولذلك فإنه سبحانه يدعو الإنسان إليه ويندبه إلى طلب هذه الهداية منه سبحانه ليل نهار، في الصلاة وفي غيرها من الحالات، ولا يستثنى من هذه الدعوة أحد من عباده، فها هو سبحانه يصف النبيّ (ص) بقوله: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ – عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»١. ومع ذلك هو مأمور بطلب هذه الهداية في كل صلاة عند قراءة قوله تعالى: «إهدنا الصراط المستقيم» من سورة الفاتحة. وإذا كان هذا هو حال النبيّ (ص) فإنّ الإنسان العاديّ أدقّ وأكثر حراجة، وعلينا أن نلتفت إلى الخطر الدائم وهو خطر الانحراف عن هذا الصراط.

التعاليم:

١- السيطرة على غنائم الحرب أمر مشروع ومجاز في قوانين الجهاد الإسلاميّ: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً».

٢- التنمية الاقتصادية وتحسين الأحوال الاقتصادية للمسلمين من المواهب الإلهية والنعم التي يمنّ بها الله على المسلمين: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً».

٣- ما حصل عليه المسلمون من الغنائم في خيبر، وفي غيرها، ليس هو كل ما وعد الله سبحانه: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ».

٤- العجلة مقبولة في بعض الأحيان: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ».

٥- الغنائم تكون ذات منفعة ويأنس بها الإنسان عندما تكون مقرونة بالأمن: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ».

٦- كفّ أيدي العدوّ وأذاه عن المسلمين من النعم الإلهية: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ».

٧- على الإنسان أن لا يحكم على الأحداث المؤلمة، أو المفرحة، بحسب ظواهرها فقط وآثارها المباشرة عليه، بل عليه أن يراها مظهراً من مظاهر قدرة الله سبحانه وعلامة من علامات تدخّله في حياة الإنسان: «وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

٨- الغنيمة، والأمن، والهداية، هي الثواب الإلهيّ المعجّل للمؤمنين: «مَغَانِمَ... وَكَفَّ أَيْدِيَ... وَيَهْدِيَكُمْ».

٩- المال والثروة من المزالق التي يُخشى على الإنسان معها من الانحراف والسقوط. ومن مظاهر اللطف الإلهيّ بالإنسان اجتماع الثروة مع الهداية: «وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

١٠- على الإنسان أن يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم دائماً، حتى بعد بيعة رسول الله والتشرّف برضا الله عنه: «وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١)

إشارات:

- يحدثنا القرآن الكريم في مواضع عدّة عن الاقتران بين العسر واليسر، ومن ذلك قوله تعالى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»١، وقوله: «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا»٢. فقد كانت السنوات الأولى بعد بعثة النبيّ (ص) سنوات عذاب واتهام وتآمر على الإسلام والمسلمين. والسنوات الأولى بعد الهجرة كانت ملأى بالحروب والمعارك والجرحى والشهداء. وقد تحقق وعد الله باليسر في السنة الأخيرة من حياة النبيّ (ص)، ويتجلّى ذلك في الوعود والأخبار التي تتضمنّها هذه السورة: «فَتْحًا مُّبِينًا»، «وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا»، «وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا»، «مَغَانِمَ كَثِيرَةً»، «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا».

التعاليم:

١- الوعد بالغنائم في المستقبل مبنيّ على العلم والقدرة الإلهيّين: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا».

٢- على الإنسان أن لا يحسب أنّ الحصول على الغنائم تابع لذكائه وقوّته، بل هو نعمة وتدبير إلهيّ: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا»

٣- ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى نقاط ضعفه حتى وهو في حالات القوّة وعندما يحالفه النجاح، فقد مرّ في الآيات السابقة: «فَتْحًا قَرِيبًا...مَغَانِمَ كَثِيرَةً». وهنا يلفت الله نظر الإنسان إلى ضعفه، حيث يقول: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا».

٤- يجب أن نثق بوعود الله ونحسن الظنّ به سبحانه: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً... قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا».

٥- آيات القرآن مدرسة للتربية على التوكّل والتوحيد، ومدرسة للإنسان الموحّد: «وعدكم... فعجّل... كفّ.. يهديكم... أحاط الله... وكان الله على كل شيء قديراً».

٦- من يطمأنّ إلى وعده ويراهن عليه، هو القادر على الوفاء بالوعد: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٢٢)

إشارات:

– معنى الآية، بناء على ارتباطها بقضية صلح الحديبية، أنّ الإقدام على الصلح والرضا بمعاهدة العدوّ لم يكن سببه ضعفكم وعجزكم عن مواجهة عدوّكم، بل كان لأسباب أخرى فيها مصالحكم، ولو لم تصالحوا وأقدم العدوّ على قتالكم لانتصرتم عليه.

– يوم القيامة يتّضح أنّ الكافر ليس له وليّ ولا نصير حتّى لو كان هو القويّ بحسب الظاهر في الدنيا، والمؤمن على العكس تماماً يستند إلى ولاية الله ونصرته وهو حسبه، حتى لو بدا في الدنيا ضعيفاً قليل الحيلة. وهذا ما يشير إليه الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة بقوله: "ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟".

التعاليم:

١– لقد قويت شوكة المسلمين بعد ضعفهم إلى حد يعجز العدوّ عنده عن مواجهتهم، ولذلك فهو يلوذ بالفرار عندما تحين ساعة اللقاء: «لَوْ قَاتَلَكُمُ... لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ».

٢– من لم يكن الله ناصره فلا ناصر له: «لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا»

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣)

إشارات:

– تشبه هذه الآية في معناها قوله تعالى في سورة المجادلة في الآية الحادية والعشرين: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي».

– التاريخ وما فيه من أحداث لا يسير بشكل عشوائي، وإنما هو خاضع للقوانين والسنن الإلهيّة، فالغنى والفقر، والعزّ والذلّ، والنصر والهزيمة، كل ذلك خاضع للسنن الإلهيّة. ومن السنن الإلهيّة انتصار الحقّ على الباطل ولو بعد حين.

التعاليم:

١– الأحداث التاريخية لا تقع صدفةً، بل تسير وفق قانون وخطة ونظام: «سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ».

٢– قوانين الإنسان تابعة لتجاربه وأخطائه، وأما السنن الإلهيّة فهي فوق الزمان والمكان، ولذلك فهي ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل: «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا».

٣– لا تفقد السنن الإلهيّة فعاليتها بمرور الزمان: «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا».

وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤)

إشارات:

– يبدو أنّ الآية تشير إلى صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين كانوا مستعدّين لقتال المسلمين، والنبيّ (ص) بدوره أخذ البيعة من أصحابه تحت الشجرة كما ورد في آية سابقة من هذه السورة، ولكن الأمور انتهت إلى توقيع الصلح، وهذا معنى كف أيدي كل من الطرفين عن الآخر.

– تشير الآية إلى كفّ الله أيدي المشركين عن المسلمين، وإلى كفّ أيدي المسلمين عن المشركين أيضاً. وهذا الكفّ من الطرفين كان نعمة إلهيّة؛ لسببين، أحدهما، أن الله حفظ قداسة الكعبة والمسجد الحرام ولم يسمح بإراقة الدم فيهما، والأمر الثاني هو نعمة الأمن لعشر سنوات فازداد عدد المسلمين واستطاعوا بعد سنتين أن يدخلوا مكّة فاتحين. وهذا من نتائج الصلح وبركاته. ولو وقعت الحرب لكثر القتل بين المسلمين والمشركين، ولأريقت الدماء في الحرم، ولترتّب على ذلك كله آثار لا يعلمها إلا الله. وربّما لهذه الأسباب جميعاً عدّ الله "صلح الحديبية" "فتحاً".

التعاليم:

١– من السنن الإلهيّة الحتمية التي لا تتغيّر ولا تتبدّل، لطف الله بالمؤمنين: « وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا – وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ».

٢– النصر والتقدّم وكل ما يصيبه الإنسان من خير هو بتدبير وإرادة إلهيّين: «وَهُوَ الَّذِي...».

٣– الأمن من أذى العدوّ، وخاصة عندما يكون الإنسان بين يديه وفي أرضه، من النعم الإلهيّة الكبرى على الإنسان: «بِبَطْنِ مَكَّةَ».

٤– الصلح في بعض الحالات قد يكون من مؤشّرات النصر والظفر وعلاماته: «مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ».

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٢٥)

إشارات:

– "معكوفاً" أي محبوساً وممنوعاً. والهدي المعكوف أي المحبوس والموقوف للذبح ضمن مراسم الحجّ ومناسكه. والشخص المعتكف هو الذي حبس نفسه في مكان مقدس لعبادة الله سبحانه.

– "المعرّة" الأمر القبيح المكروه، و"تزيّلوا" أي تميّزوا وانفصل بعضهم عن بعض، والمراد هنا امتياز المؤمنين عن المشركين.

– تشير هذه الآية إلى أحد أسباب الصلح وهو أنه كان بين المشركين عدد من المسلمين يؤدّون مناسك الحج، ولو أصرّ المسلمون على دخول مكّة بالقوّة لأصابوا شيئاً من دماء هؤلاء المسلمين لعدم معرفتهم بهم، فأراد الله أن يحفظ دماء هؤلاء المسلمين فأمر نبيّه بالصلح والمعاهدة.

– عن الإمام الحسن (ع) في تبرير قبوله بالصلح مع معاوية: "فإني تركته لصلاح الأمة وحقن دمائها".١

التعاليم:

١– لم تكون موافقة المشركين على الصلح مؤشّراً على تنازلهم عن معتقداتهم وشركهم، بل وافقوا عليه وهم كافرون مصرّون على الكفر والعناد: «كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ... هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...».

٢– للأضحية في الحجّ مكان محدّد. وقد وجّه الله سبحانه اللوم إلى الكفّار لصدّهم المسلمين عن الوصول إلى حيث يذبحون الأضاحي: «وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ».

٣- على القيادة الإسلامية أن تبيّن أسباب اتخاذ القرار بالحرب والسلم: «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ» (الأوامر الإلهية كلها لها أسباب وغايات، وأمر الله بصلح الحديبية سببه الحفاظ على دماء المسلمين المجهولين).

٤- تقديم الأهمّ على المهمّ من القواعد العقلية والشرعيّة والعرفية: «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ» (وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى أنّ حفظ دماء المسلمين أهمّ من خوض الحرب مع المشركين حتى لو كانت احتمالات النصر متوفّرة كما في الآية السابقة).

٥- دماء المسلمين محترمة، ولا فرق بين دم المرأة المسلمة والرجل المسلم: «وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ».

٦- الإنسان مسؤول عن الدماء حتى لو كان لا يعرف أنّها دماء محترمة: «وَلَوْلَا رِجَالٌ... لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ».

٧- يريد الله سبحانه أن لا يصيب المسلمين أيّ أمر قبيح يؤاخذون عليه في الدنيا والآخرة، أو يعاب عليهم في الدنيا والآخرة كذلك: «فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ».

٨- على القيادة الإسلامية أن تدقق في قراراتها وتجيل الفكر في الآثار والنتائج التي يمكن أن تترتّب على أي قرار تتخذه سواء في ذلك الحرب أم السلم، أو غيرهما من القرارات: «فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ»؛ وذلك كي لا يقع المسلمون وقائدهم في خطأ غير مقصود.

٩- لا ينبغي للمسلمين أن يعطوا العدوّ حجّة ومستمسكاً يستفيد منه إعلامياً أو سياسياً: «فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ». فلو دخل المسلمون مكّة عنوةً وقُتل في الهجوم بعض المسلمين خطأ لاستغلّ المشركون هذه الدماء وشنّعوا على المسلمين أنّهم عتاة قساة لا يرحمون حتى أبناء دينهم.

١٠- في بعض الأحيان يكون الصلح وسيلة من وسائل الدعوة والتبليغ، أو على الأقل يفتح أبواب القلوب في وجه الدعوة الإسلامية: «لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء».

١١- الكفار مستحقّون للعذاب والعقاب الإلهيّ، وإنّ العذاب سيصيبهم حتى في الدنيا عندما يمتازون عن المسلمين: «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ».

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦)

إشارات:

– "الحميّة" في الأصل الحرارة، وتستعمل في هذا السياق للدلالة على التعصّب لأفكار الآباء والأجداد وعاداتهم والتمسّك والتعصّب مذموم عندما لا يكون مبنيّاً على المنطق والدليل، وإلا فإنّ التعصّب للحقّ والإصرار عليه ممدوح مندوب إليه.

– عندما دوّنت بنود الصلح في الحديبية كتب الإمام علي (ع) في مطلع وثيقة الصلح جملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، فاعترض المشركون لأنهم رأوا أنّ البسملة شعار المسلمين وهم لا يوافقون عليه، وطالبوا أن يكتب عوضاً عنها "باسمك اللهم". ثم اعترضوا على الإشارة إلى النبيّ (ص) بعبارة: "محمد رسول الله"، وطالبوا بكتابة اسم النبيّ (ص) دون وصفه بالرسالة. وفي الحالتين قبل النبيّ (ص) اعتراضهم. وكان ذلك من أمارات التعصّب والحميّة عند المشركين، والاطمئنان والسكينة عند المسلمين.

– يقع الإسلام على طرف النقيض والمواجهة لكل ما يمتّ إلى الجاهلية وآدابها وتقاليدها بصلة: «ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ»١، «تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ»٢، و«حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

– القلب، في الاصطلاح القرآنيّ، محل للعلاقة بين الإنسان والله، ومنبت للفضائل والرشد، ومن جهة أخرى محل للرذائل والمفاسد:

الرشد المعنوي: «تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ»٣، «أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ»٤، و«فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ»٥.

منبت الرذائل: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ»٦، «يَطْبَعُ اللهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ»٧، «اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»٨.

– ورد في الحديث تفسير "كلمة التقوى" بالإيمان.٩

التعاليم:

١- التعصّب الجاهلي من الدوافع إلى صدّ المسلمين عن المسجد الحرام: « صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ».

٢- من أساليب مواجهة التعصّب وحميّة الجاهلية السكينة والهدوء: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ... فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ».

٣- تنمو المفاسد الأخلاقية في بيئة الكفر. والإيمان بالله سبحانه من موانع استبداد الغرائز السلبية: «الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ..».

٤- التعصّب والثبات على الموقف من الصفات الحميدة عندما يكون مستنداً إلى المنطق والبرهان، وما يذمّه الله ويدينه هو التعصّب للجاهلية وقيمها: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ».

٥- لا ينبغي مواجهة التصرّفات السيئة بمثلها: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ... فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ».

٦- لا يتخلّى الله عن المؤمنين عندما يواجَهون بالتعصّب وحميّة الجاهلية، بل يشاركهم في مواجهة ما يوجّه ضدّهم: «الحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ... فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ».

٧- لا تتاح السكينة ولا يحصل عليها الإنسان بزيادة العديد والعدّة، بل هي هبة إلهيّة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده: «فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ».

٨- عندما يرى الله ورسوله أنّ الصلح في الحديبية أفضل من الحرب، على المؤمنين أن يلتزموا بذلك ويذعنوا له: «أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى».

٩- التقوى تكتسب قيمتها من دوامها واستمرارها، وتفقد قيمتها عندما تكون موسمية وتابعة للظروف والأوضاع المتغيّرة: «أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى».

١٠- يجب أن يتوفّر الإنسان على الأهلية والاستعداد لتلقّي اللطف الإلهيّ: «كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا».

١١- اتخاذ المواقف، واختيار الموقف المناسب منها، ينبغي أن يخضع لمعايير العلم والمعرفة: «كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا»

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧)

إشارات:

– ورد في كتب التاريخ أن رسول الله (ص) رأي في منامه أنّ المسلمين يدخلون المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين أظافرهم، بعد أداء مناسك العمرة. فأخبر المسلمين بما رأى فدخل عليهم السرور والغبطة بما سمعوا منه واستبشروا خيراً. ولم يطل المقام بهم في المدينة حتى عزموا على الحجّ، ولما وصلوا إلى مشارف مكّة سبقهم خبرهم إلى قريش، فقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من متابعة السير عند الحديبية، وعزموا على قتالهم وقتلهم، فأخذ النبيّ (ص) البيعة من أصحابه وعزم على الدفاع، ولكن الله أمره بعقد الصلح مع قريش لأسباب عدة أحدها: الحفاظ على دماء المسلمين المقيمين في مكّة كي لا يُقتلوا على أيدي المسلمين خطأً، فيكون ذلك باباً من أبواب التشنيع عليهم من قبَل المشركين، ولغير ذلك من الأسباب. وكان ما أراد سبحانه. وترتّبت على الصلح آثار حسنة جمّة ودخل كثير من الناس في الإسلام في السنتين الأولى والثانية من الصلح.

ولكنهم، على أي حال، لم ينالوا ما كانوا يتوقعون من الحجّ، فأثار ذلك أسئلة في أذهان بعض المسلمين: لمَ لم يتحقّق ما رآه النبيّ في منامه؟! وكان جواب النبيّ هو التطمين وإحياء الأمل بتحقق هذا الحلم ولو لم يكن في سنتهم هذه. وعاد المسلمون إلى المدينة، وحجوا في العام اللاحق وأخلى لهم المشركون المناسك بحسب الاتفاق المعقود بين الطرفين، فحجّوا دون أن يعكّر صفوهم كدر. ولكن لم تطل مدة وفاء المشركين بعهودهم، ونقضوا الصلح وصار المسلمون في حلّ منه، وفتحوا مكّة دون أن يراق لأحد دم.

– الآيات: ١١، و١٥، و١٦ تبدأ باستشراف المستقبل، "سيقول"، "ستدعون". وهذه الآية كذلك تستشرف المستقبل بالحديث عن الرؤيا التي رآها النبيّ (ص).

– "الفتح القريب" هو فتح مكّة أو فتح خيبر، وربّما يكون صلح الحديبية، لأنّه في الواقع كان نصراً مؤزّرا للمسلمين.

– في الرواية عن عليّ (ع): "أن رسول الله (ص) قال: اللهم ارحم المحلّقين، فقيل: يا رسول الله والمقصّرين؟ فقال: والمقصّرين في الرابعة، فالحلق أفضل والتقصير يجزي، قال تعالى: «...محلّقين ومقصرين...»...فبدأ بالحلق وهو أفضل".١

التعاليم:

١- رؤى الأنبياء وأحلامهم لا بدّ أن تتحقّق: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ».

٢- دخول المسلمين إلى مكّة من المغيّبات التي كشفها القرآن قبل تحققها، وهي مصداق من مصاديق إعجازه: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ».

٣- رغم أنّ الرؤيا كانت رؤيا صادقة من النبيّ (ص)، إلا أنّ الإخبار عن المستقبل ينبغي أن يقترن بالتعليق على المشيئة الإلهية: «إِن شَاء اللَّهُ».

٤- حلق الرأس وتقصير الشعر والأظافر من أعمال الحجّ والعمرة: «مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ...».

٥- لا يكفي الأمن الظاهري لتحقيق السكينة والاطمئنان، بل يحتاج ذلك إلى تحقق الأمن الداخلي: «آمِنِينَ لَا تَخَافُونَ».

٦- لا يعلم الإنسان كل الآثار والنتائج التي تترتّب على أعماله؛ ولذلك عليه أن يطيع الله فيما يأمره وينهاه لتحصيل المصالح وتجنّب المفاسد؛ فالمسلمون كانوا يرون الخير في دخول مكّة للحجّ، ولكن المصلحة بحسب علم الله كانت في المهادنة والصلح: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا».

٧- ربّ نصر يكمن في المهادنة والصلح: «فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨)

إشارات:

– تكرّر الوعد الإلهيّ بالنصر للإسلام أكثر من مرّة في القرآن الكريم. وربّما كان المراد من ذلك غلبة الحجّة والمنطق. وهذا ثابت للإسلام في كل زمان. وربّما كان بانتشاره وإقبال الناس عليه. ولا مانع أن تدور الأيام لمصلحة الإسلام والمسلمين، كما كانت السيطرة على جزء كبير من العالم في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

– نحن نعتقد أنّ المستقبل للإسلام، بحسب أحد الأسس الاعتقادية التي يؤمن بها المسلمون، وهي ظهور المهدي في آخر الزمان.

التعاليم:

١– غلبة الحقّ على الباطل هدف وغاية، الله وحده هو القادر على تحقيقها: «هُوَ الَّذِي».

٢– رمز نصر الإسلام الهداية الإلهيّة والانسجام مع ما يقتضيه الحقّ: «أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ».

٣– في الظروف الصعبة وأيام الشدّة يجب إحياء الأمل بالمستقبل في نفوس الناس (ففي ظلّ سيطرة المشركين على مكّة وعجز المسلمين عن الدخول إليها للحج والعمرة، يبشّر الله المسلمين بالغلبة وظهور دينهم على الأديان كلّها): «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

٤– الأديان القديمة كلّها كانت لفترة محددة من تاريخ الإنسانية: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

٥– يحدثنا القرآن في هذه الآية عن مستقبل البشرية القادم: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

٦– قبول الناس وعدم قبولهم لا أهميّة كبيرة له، وإنّما المهمّ والأساس هو قبول الله وشهادته: «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (٢٩)

إشارات:

- "ركّع" جمع راكع. والركوع هو الانحناءة المعروفة في الصلاة، و"سجّد" جمع ساجد، وهو وضع الجبهة على الأرض تعظيماً، وهيئة الجمع هذه هي من صيغ المبالغة، يوصف بها كثيرو الركوع والسجود.

- "سوق" جمع ساق، وهو جذع النباتات، والشطأ هو البرعم. "آزر" بمعنى عاضد وقوّى. و"استغلظ" أي صار صلباً قاسياً.

- الخطاب في أول السورة موجّه إلى رسول الله (ص): «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ»؛ ومحور الحديث في آخر السورة هو رسول الله (ص) أيضاً: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

- في هذه الآية من السورة يحدد الله سبحانه ضوابط العلاقات للمؤمنين، على النحو الآتي:

- العلاقة مع الغريب مبنيّة على القوّة: "أشدّاء".

- العلاقة مع الداخل منيّة على التراحم: "رحماء".

- العلاقة مع الله أساسها العبودية له سبحانه: "ركّعاً سجّداً".

- قانون العلاقة مع الذات هو السعي وتعليق الأمل على فضل الله: "يبتغون فضلاً...".

- يحسُن التدقيق في تشبيه مجتمع المؤمنين بالمزرعة والزراعة، لاكتشاف وجوه الشبه بين المشبّه والمشبّه به:

أ- الزرع ينبع من باطن الأرض، والعقيدة تنبع من باطن الإنسان وتنعكس في سلوكه وظاهره.

ب- الزراعة تحتاج إلى بيئة مناسبة، والمجتمع الإسلامي يحتاج إلى بيئة مناسبة ليتحقق ويتطوّر.

ج- الزرع ينمو ويتطوّر شيئاً فشيئاً وبالتدريج، والمجتمع الإسلامي يبدأ بجماعة قليلة ثمّ يبدأ بالنموّ والتطوّر.

– عند كتابة وثيقة الصلح أصرّ ممثل المشركين على محو لقب "رسول الله" عن اسم النبيّ (ص)، وقد آلم ذلك قلب عليّ (ع) فامتنع عن محوه تأدّباً، وكأنّ الله أراد أن يرغم أنف المشركين، فأشار إلى رسول الله باسمه ولقبه: «مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ».

– أصحاب النبيّ يسعون للجمع بين الدنيا والآخرة. "الفضل" هو النعم المادية التي ينعم الله بها على المؤمنين، والـ"رضوان" هو النعم المعنوية التي يمنّ الله بها عليهم. وربّما كان معنى الآية أنّ المؤمنين من أصحاب رسول الله (ص) لا يقيمون وزناً لأعمالهم وتضحياتهم، وإنّما يراهنون بعد كل ما يؤدّون من عمل على فضل الله سبحانه.

– تشير هذه الآية إلى العلامات الظاهرة على المؤمنين والتي تدلّ على إيمانهم، وهي: الركوع، والسجود، والعلامة في الجبهة من أثر السجود: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ». وتشير أيضاً إلى ثبات العقيدة ورسوخها في باطن الإنسان: «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ».

– ورد في إنجيل متى: "وضرب لهم مثلاً آخر، قال: يشبّه ملكوت السماوات ببزرة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله. فمع أنها أصغر البذور كلّها، فحين تنمو تصبح أكبر البقول جميعاً، ثم تصير شجرة، حتى إنّ طيور السماء تأتي وتبيت في أغصانها".١

– عن الإمام الصادق (ع) في تفسير قوله تعالى: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، قال: "هو السهر في الصلاة".

– الإسلام دين جامع يشتمل على أبعاد عدّة؛ الشدّة مع الأعداء، والتراحم في العلاقات الاجتماعية الداخليّة، وفي الجانب المعنوي كثرة الركوع والسجود.

التعاليم:

١– الوعود الإلهيّة واضحة شفّافة لا لبس فيها (الإسلام هو الدين الجامع الذي سوف ينتصر على الأديان كلّها، ونبيّ هذا الدين وحامل رسالته هو رسول الله (ص)) : «أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى...مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ...».

٢– عالميّة الدين الإسلامي تتوقّف على قائد إلهيّ وأصحاب مخلصين: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ... مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ».

٣– من الأساليب الصالحة والمؤثّرة في التربية تقديم القدوة الصالحة والنموذج اللائق: «مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ».

٤- الإيمان برسول الله «آمَنُواْ بِهِ» هو الخطوة الأولى، والمهمّ هو ما بعدها من الخطوات، وهو السير على خطى الرسول والكون معه: «وَالَّذِينَ مَعَهُ».

٥- على المؤمنين أن يجمعوا بين الشدّة والصلابة في التعاطي مع الأعداء، والتراحم والمودّة والعطف مع الإخوان وفي العلاقات داخل المجتمع الإسلاميّ: «أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».

٦- لا يسمح للمسلم بالحياد في العلاقات بل لا بدّ أن يختار لنفسه موقعاً وموقفاً: «أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».إذا كنتم تؤمنون بالله، فالواجب عليكم هو الثقة بتحقّق وعوده: «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

٧- المعيار في العلاقات والمودة والشدة هو الإيمان والكفر، وليس القرابة ورابطة الدم: «أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ».

٨- عبادة أصحاب النبيّ (ص) هي سيرة ونمط حياة وليس عملاً موسمياً في أوقات دون غيرها: «تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا».

٩- يجب أن تكون الصلاة في المجتمع الإسلامي ظاهرة تشاهد بوضوح: «تَرَاهُمْ».

١٠- الركوع والسجود من الأمور المحورية في الصلاة: «رُكَّعًا سُجَّدًا».

١١- العبادة الممدوحة عند الله هي العبادة المستمرّة: «رُكَّعًا سُجَّدًا».

١٢- توجد في الإنجيل والتوراة موارد صحيحة سلمت من التحريف، ولذلك يستشهد القرآن بها: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ و...الْإِنجِيلِ».

١٣- تشتمل الكتب السماوية السابقة على إخبارات عن الغيب، فها هو القرآن يشير إلى حديث التوراة والإنجيل إلى أصحاب رسول الله: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ و...الْإِنجِيلِ».

١٤- أمثال الكتب السماوية: طبيعية، عامة، قابلة للفهم من جميع الناس، وفي متناول أذهانهم وعقولهم: «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ...».

١٥- التطور الثابت والمستقرّ هو التطور التدريجي الطبيعي الذي لا طفرة فيه: «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ...».

١٦- المجتمع الإسلاميّ مجتمع مكتفٍ بنفسه، يعتمد على قدراته الذاتيّة: «اسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ».

١٧- السياسة والدين في الإسلام ليسا طرفي نقيض، بل بينهما تناغم وانسجام، فإلى جانب العبادة والصلاة لا بدّ من اتخاذ موقف من العدوّ يغيظه: «رُكَّعًا سُجَّدًا...لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

١٨- النمو الكميّ والنوعيّ للمسلمين يغيظ الكفّار ويزعجهم: «رُكَّعًا سُجَّدًا...لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ».

١٩- الركوع والسجود مع النبيّ لا يكفي وإن كان حسناً، بل لا بدّ من اتصاف أحوال الإنسان كلّها بالإيمان والعمل الصالح، ليحصل الإنسان على الأجر الذي يطلبه ويرغب فيه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

٢٠- الثواب الذي يناله المؤمن يصعب استيعابه وفهمه في الدنيا: « أَجْرًا عَظِيمًا».

٢١- دفع الضرر والمفسدة أولى من جلب المصلحة والنفع؛ ولذلك ذُكرت المغفرة أولاً ثم ذُكر بعدها الأجر العظيم.

« والحمد لله ربّ العالمين »